أثر العامل الاقتصادي في نشر الإسلام غرب إفريقيا

د. ذهبية عاشور قري
قسم التاريخ– كلية الآداب زوارة

مقدمة:

يمثل القرن الحادي عشر الميلادي بداية أكبر عملية انتشار للإسلام في القارة الإفريقية، فقد جاب المسلمون البر والبحر وطوَّقوا سواعد هذه القارة، حتى وصولوا إلى أقصى جنوبها، وذلك قبل أنْ يصل إليها البرتغاليون بعدَّة قرون، وكان للعامل الاقتصادي الدور الأكبر في نشر الإسلام غرب إفريقيا، وقد حمل لواءه التجار الذين عملوا على نشر الدين الجديد، وطوروا التجارة، وأنشئوا المدن، فتوطدت علاقاتهم بالأفارقة وأقاموا الدويلات والإمارات الإسلامية، التي كانت تمثل حلقة الوصل بين غرب إفريقيا والدول الإسلامية المجاورة، ولعبت دوراً بارزاً في نشر الدين الإسلامي، وتأسيس صرح الأمة الإسلامية في تلك الأصقاع.

إنَّ هذا الموضوع من الموضوعات المهمة والجديرة بالدراسة، فهذا العامل خير معبِّر، وأصدق ما يدّون به تاريخ هذه الشعوب، خاصة أنَّه لا يظهر إلا باستحياء، مقارنة بالعامل السياسي، لذا أردتُ من خلال هذا البحث تسليط الضوء عليه، وعلى مساهمته في نشر الإسلام غرب إفريقيا، تلك المساهمة التي ظلت مشتتة بين ثنايا المصادر والمراجع، وبباعث من هذه الأهمية كان الاختيار لهذا الموضوع.

إنَّ هدفنا من وراء هذا البحث هو سد الثغرات التي أغفلتها الجهود السابقة، واستيفاء الجوانب التي لم يتطرَّق لها الباحثون السابقون، ومحاولة تقديم دراسة علمية مستقلة بذاتها.

أمَّا عن المنهج الذي سنحاول أنْ نتتبعه، فإنَّنا نود الإشارة إلى أنَّ هذا الموضوع قد فرض علينا أنْ نتتبع المنهج السردي للأحداث التاريخية الخاصة بهذه الفترة، ثم اللجوء إلى تحليل هذه الأحداث ومقارنتها واستقرائها وقراءة ما بين سطورها، قراءة تساعدنا على الوصول إلى الحقيقة والرأي الموضوعي. وحاولتُ في هذا البحث نسب

كل قول لصاحبه بأمانة علمية وتجرُّد في النقل، واستعنت بعدة مراجع مهمة كالمصادر الأصلية والمراجع الحديثة العربية والمعرَّبة.

وقد اقتصرت هذه الدراسة على خمسة مباحث وخاتمة، حيث يتناول المبحث الأول الذي عنوانه "النشاط التجاري" دور التجار كدعاة، وذكرتُ الطرق التجارية التي سلكوها في سبيل نشر الدين الإسلامي، ثم تحدثتُ عن أهم المراكز التجارية التي قامت على هذه الطرق، ولعبت دوراً مهماً في خدمة الإسلام. أمَّا المبحث الثاني فهو خاص بـ "أثر النشاط التجاري في نشر الإسلام" تطرقت فيه إلى المراحل التي مرت بها التأثيرات الاقتصادية غرب إفريقيا. واستعرضت في المبحث الثالث "أثر المسلمين في تطور النشاط الصناعي" أهم الصناعات والمصانع التي أُقيمت وتطورت بمجيئ المسلمين. وتطرقت في المبحث الرابع إلى "أثر المسلمين في تطور النشاط الزراعي" وضحت فيه فضل الإسلام في القضاء على المعتقدات الزائفة المتعلقة بالزراعة، كما تحدثتُ فيه عن أهم المحاصيل الزراعية التي تنتجها هذه المنطقة. وتطرقتُ في المبحث الخامس إلى دراسة "أثر المسلمين في تطور المعاملات المالية" الذي قمتُ فيه بدراسة المتغيرات الجديدة التي حدثت، وذلك بسبب تطبيق الأفارقة للقوانين في معاملاتهم المالية وفق ما نص عليه القرآن الكريم.

وأخيراً الخاتمة، وحاولت فيها استخلاص بعض النتائج التي انبثقت عن هذه الدراسة بشكل عام.

أولاً– النشاط التجاري:

كان للعرب المسلمين دور كبير في كشف القارة الأفريقية، فقد جابوا البر والبحر ووصلوا سواحل القارة، ثم نزلوا لأقصى جنوبها قبل أنْ يصل إليها البرتغاليون بعدة قرون.

عرف العرب التجارة عبر الصحراء قبل الإسلام، وكانوا يتاجرون بالشعير الذي يزرعونه والتمور وغيرها[1]، وعرفوا التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد، ولمَّا ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها، كما

زاد النشاط الذي كان يقوم به العرب، فقد اهتم المسلمون بالطرق والأمن، وحدَّدوا المكاييل والموازين والمقاييس، وأشاع التاجر المسلم حوله جواً من الثقة، فوجد ترحاباً أينما حل، وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامي بما يحمله من مدنية وحضارة، واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس، فهيأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة والتجار.[2]

بالإضافة إلى التجار العرب والبربر كان هناك نشاط تجاري واسع بهذه المناطق، يزاوله تجار من الفولاني والهوسا، ومن بلاد التكرور، وكل هذه التجارة تمت في ظل الإسلام فخدمها الإسلام وخدمته حتى أنَّ بعض المؤرخين يقولون: إنَّ الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير.

أ- التجار الدعاة:

ليس هناك اختلاف بين التاجر والداعي، ولكن الفرق البسيط هو أنَّ التاجر يهتم بالتجارة والدعوة معاً، أمَّا الداعي فكان اهتمامه الأول هو الدعوة إلى الدين الحنيف. وقد تم نشر الإسلام بإفريقيا عن طريق الدعوة بدليل أنَّ انتشاره استغرق وقتاً طويلاً.

إنَّ انتشار دعوة الإسلام بغرب إفريقيا لم تقم على القسر والقوة، وإنَّما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون، وكثيراً ما انتشر الإسلام ببطء من قوم إلى قوم، وقد يسَّر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنَّه دين فطرة بطبيعته سهل التناول لا لبس ولا تعقيد في مبادئه، سهل التطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص عند إعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين (أشهد ألاَّ إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله) حتى يصبح في عداد المسلمين، وقد حبب الإسلام إلى الأفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف مثل الثوب النظيف، والمسبحة والكتابة العربية والوقار وشعائر الصلاة، ممَّا يضفي على المسلم مكانة مرموقة ومحترمة، فالذي يدخل الإسلام يشعر بأنَّه قد أصبحت له شخصية محترمة.

كان الداعي المسلم يباشر دعوته مع تجارة يزاولها، وكان يجد تكريماً باعتباره رجل علم ثقته في الدين والشريعة الإسلامية، وقد درس العديد من المعلمين في مدارس القيروان وفاس وطرابلس والقاهرة، فإذا أتموا دراستهم وعادوا إلى بلادهم الأصلية تحولوا إلى دعاة.[3]

كان الدعاة يتفرغون للدعوة والتعليم، فإنْ كان تاجراً كان صادقاً وأميناً، وكان يجمع حوله مجموعة من الأطفال والشباب سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم من لا يتبعونه، وهذا يجذب له نفراً جديداً كل يوم للانضمام إلى حلقته. لذلك فالتاجر المسلم يستطيع أنْ يقنع القبائل الإفريقية غير المتحضرة بالعديد من الحقائق المتعلقة بالله وبالإنسان تصل إلى القلب، بل يستطيع إلى جانب ذلك أنْ يمنحهم ترخيصاً بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية تخوِّل لهم حق الحماية والمساعدة في البلاد الإسلامية التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى سور الصين شرقاً.

ولم يكن من العسير على المعلم المسلم إقناع شيخ القبيلة الإفريقية، إذ احتفظ الإسلام له بمكانته ولا يأخذ منه شيئاً، والإسلام يعطيه حقوقاً مقابل التزامات ليس من العسير الوفاء بها. وطالما تعاون الطالب والتاجر معاً فيدفع التاجر من ماله ليهيئ للمعلم مكاناً يلتقي فيه الناس، ويزوده في نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية، ومقابل هذا يعطي المعلم من فكره وجهده لهداية الناس. وهذا زاد من تسهيل جهود الدعاة التجار في الدعوة أنَّ الاعتقاد بوجود الله هو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان، ويمكن أنْ يتحول الوثني بسهولة ويسر إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين، وكذلك الحال في بعض المظاهر الأخرى في دياناتهم. وكانت نظرة الأفريقيين العامة كثير من شرائعهم الدينية قابلة بأنْ تصطبغ بصبغة إسلامية، وأنْ تتحوَّل إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير.[4]

ب- الطرق التجارية:[5]

سلك الإسلام مع التجار إلى غرب إفريقيا عدَّة طرق أهمها الطريق الذي يبدأ من فاس أو تلمسان إلى سجلماسة قادرار إلى تمبكتو، والطريق من تلمسان وطريق

القيروان أو طرابلس إلى غدامس، وتمبكتو. كما سلك الإسلام مع التجار إلى السودان الأوسط وبحيرة تشاد عدة طرق أهمها الطريق من المهدية وطرابلس إلى مرزق وكوكا، والطريق من طبرق إلى ودّان مخترقاً أوجلة والكفرة، والطريق من القاهرة إلى دارفور فكوكا.[6] ومن أهم الطرق التي سلكها التجار ما يلي:

1- طريق شمال إفريقيا مجتازاً مصر، برقة، طرابلس، تونس، المغرب الأوسط، بلاد السوس الأقصى، إلى مصب نهر السنغال، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحري من مرافئ الشام ومصر إلى مرافئ المغرب الأقصى.

2- طرق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب بقسميها الأوسط والأقصى إلى شمال السودان، وخاصة الطريق الذي يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد برنو غربي بحيرة تشاد، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوسا شمال نيجيريا، ومن جنوب مراكش إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر.

3- طريق صحراوي يبدأ من أسيوط ماراً بواحات مصر في الصحراء الغربية، ويجتاز جنوب بلاد المغرب حتى يصل إلى غربي إفريقيا.

4- طريق وادي النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان.

5- طريق السفن من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى ساحل إفريقيا الشرقي، ومنه إلى قلب القارة.

وقد نشطت حركة القوافل التجارية بالأراضي الليبية عبر شبكة الطرق الداخلية التي تتصل بعضها بمناطق السودان جنوباً، وقد شهدت هذه الطرق نمواً واسعاً، **نذكر منها:**[7]

1. طريق جبل نفوسة إلى زويلة، الذي يبدأ من جادو ويتميز بقلة مواقعه المائية، لكنه لا يخلو من بعض الواحات أحياناً.

2. طريق زويلة – سبها إلى ودان.

3. طريق طرابلس– ودان الذي تراقبه قبائل هوارة، وأكثر الطرق استعمالاً بالنسبة إلى أقصى الشمال هو الطريق الساحلي الممتد من الإسكندرية أو المبتدئ من القاهرة إلى

جدة، ثم متجه نحو فاس، وهو طريق لم يكن يخلو من المخاطر، ولاسيما بعد هجرة بني هلال خلال الحروب القائمة بين الدول الناشئة التي بدأت تزول.

4. طريق فزان الممتد إلى يلما وكانم بتشاد، وهو طريق نشطت فيه تجارة الرقيق فمهد ذلك لتوغل الإسلام جنوباً، وساعد على ترويج منتجات برقة ومصر، ولاسيما المنسوجات منها التي كانت تجد قبولاً بتشاد.

5. طريق غدامس – تادقلة. وهناك طريق يربط تادقلة بالقيروان عبر ورغلة وقسطنطينة، ويبدو أنَّ النشاط التجاري الذي عرفته تمبكتو منذ القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر الميلادي قد أدَّى إلى تقوية التبادل التجاري والثقافي بين هذا المركز وعدد من المراكز الصحراوية الأخرى كتوات وتكدا وكاوكاو وسجلماسة وغدامس[8].

وكان طريق طرابلس، فزان، كوار، تشاد طريقاً رئيسياً سلكه الإسلام، وسارت فيه حضارته إلى قلب إفريقيا.[9] وكان للتجار الليبيين من طرابلس وغدامس وأوجلة وفزان وجبل نفوسة مكانة مرموقة في مدينة تمبكتو، نتيجة الدور التجاري المهم الذي قاموا به حيث تمتعت الجالية الغدامسية بنفوذ كبير، وأنشأت حياً خاصاً بها ممَّا يدل على كثرة أفراد هذه الجالية وأهمية نشاطها الاقتصادي.

ج- أهم المراكز التجارية:

قامت على هذه الطرق مدن تجارية لعبت دوراً مهماً في خدمة الإسلام، وهذا ممَّا يدل على أهمية التجارة في نشر الإسلام، إذ برزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشتري، ثم سرعان ما أصبحت مركزاً ثقافياً يؤمه المعلم والمدير، حيث أصبح من الشائع أنَّ مراكز الاحتكاك تم فيها تبادل السلع والأفكار، وقد تغلب الجانب التجاري على بعض المراكز مثل جني، وتغلَّب جانب العلم على مراكز أخرى مثل كانو، واشتهرت تمبكبو بالأمرين معاً، كما تولَّت طبقة نشيطة من التجار، وعملت على تنشيط الحياة التجارية في نيامي وغاو و تمبكتو وولاته وجني بالنسبة إلى السودان الغربي، وفي سجلماسة وتوات و ورقلة ومراكش وفاس والقاهرة بالنسبة لشمال

الصحراء الكبرى، كما أنشئت في الصحراء الليبية عدَّة مراكز تجارية، اشتهرت بنشاطها وعلاقاتها الاقتصادية[10] حيث سهل إقليم فزان على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري، وأحكم الصلة بين الرحلات الوافدة من الشمال إلى الجنوب، كما قام سكان واحات هذا الإقليم بدور مهم في استقبال القوافل وإرشادها عند المغادرة، وتوفير احتياجاتها من المياه وغيرها من الخدمات.

وعند ذكرنا دور المراكز التجارية في الصحراء الليبية لابد من الإشارة إلى منطقة زويلة، حيث كانت مركزاً للتجارة المستوردة من كوار وكانم، كما أنَّها كانت محطة للقوافل التي تأتيها من طرابلس وجادو وتلك التي تقصدها من اجدابيا و أوجلة و مرزق ودارفور وستان.

أمَّا مرزق فقد عرفت كمركز رئيسي لإنعاش قوافل التجارة المتبادلة مع بلاد البرنو والهوسا، وطرابلس وغدامس، إذ اشتهرت كمركز تجاري هام تتفرَّع منه عدَّة طرق تجارية، تتجمع فيه القوافل الوافدة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر تتجه إلى تمبكتو وكانو وبرنو، أمَّا جبل نفوسة فقد ارتبط بتاريخ تجارة قوافل الصحراء التي كانت تسير من طرابلس في اتجاه المناطق الأفريقية عبر جادو.

وفي حديثنا عن التجارة عبر الصحراء لابد وأنْ نذكر بعض الممالك التي ازدهرت معتمدة على التجارة، منها مملكة غانا التي كانت تتمتع بموقع تجاري عند ملتقى طرق الصحراء غرب السودان، وكان ببلادهم الذهب والفضة والرقيق والملح والنحاس والفواكه...إلخ. ولذلك اشتهرت برخائها وثروتها حتى اجتذبت المسلمين من شمال إفريقيا وعملوا في التجارة، أو كموظفين في خدمة بلاط ملوك غانا، وساعد ذلك كله على انتشار الإسلام.[11]

وفي الفترة مابين سقوط غانا وبروز مالي ظهرت مرحلة هيمنة قبائل الصوصو التي نجحت لفترة ما في توحيد المقاطعات التي كانت تحت حكم سلالة الكايا ماغان، وعندما ازدهرت مملكة مالي. تقابل التجار والحجاج الأفارقة في ملتقى الطرق

بالقاهرة. وأقيمت سقادات إفريقية بمدن بلاد المغرب، وتكاثفت العلاقات الاقتصادية مع العالم الإسلامي[12].

ونذكر بعض هذه المراكز التجارية على سبيل المثال، وليس الحصر، وهي:

1- ولاته:

تقع ولاته إلى الشمال الغربي من تمبكتو، وكانت مركزاً تجارياً وثقافياً إليها كان يفر التجار وأصحاب الأموال من الشمال والشمال الشرقي من كل قبيلة، ومن كل بلد، ومن أهل مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها، ثم تحوَّل النشاط عنها قليلاً إلى تمبكتو.[13]

2- تمبكتو:

ظلت مالي وقتاً تبسط سلطانها من المحيط الأطلسي إلى الحافة الغربية لنيجيريا الحالية، وكان وجود هذه الامبراطورية معروفاً لدى الأوروبيين في القرن الرابع عشر، وربما كان تفوق مالي يمثل أشد فترات التاريخ الإفريقي نشاطاً وتقدماً قبل مجيء الأوربيين.[14]

تقع مدينة تمبكتو على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، أسسها الطوارق في القرن الخامس الهجري، فكانوا ينزلون بها أشهر الصيف، وفي الخريف يرتحلون، ومن أسباب اختيارهم لهذا المكان أنَّ به كثيراً من الآبار ذات المياه العذبة، كما تصل إليه قنوات متفرعة من نهر النيجر، وعاماً بعد عام استقر بعض الطوارق في هذا الموضع.

ومركز تمبكتو التجاري كان واضحاً منذ نشأتها، إذ أنَّها تقع على ملتقى طرق القوافل البرية عبر الصحراء، والقوافل النهرية التي تسير بنهر النيجر، وأهم الطرق البرية التي كانت تتصل بتمبكتو أربعة هي :[15]

أ- الطريق من مصر ماراً بكانم إلى تمبكتو.

ب- الطريق من تونس ماراً بهجار إلى تمبكتو.

ج- الطريق من المغرب الأقصى ماراً بسجلماسة وتوات إلى تمبكتو.

د- الطريق من تعازة ماراً بولاته إلى تمبكتو.

وفي القرن الثاني عشر ذاع صيت تمبكتو كمركز لتجارة الملح والذهب بعد أنٍ تحوَّل لها النشاط التجاري الذي كانت تقوم به مدينة ولاته، وقد كانت تجارة الملح تأتي إلى تمبكتو من تعازة في الشمال حيث كان يوجد الملح في شكل ألواح، وكان ثمن الملح يختلف باختلاف المكان الذي يباع فيه، فهو رخيص في تعازة، وكلما بعد عنها ارتفع ثمنه حتى كان الحمل بأربعين مثقالاً من الذهب بمدينة مالي[16].

ومن أسواق تمبكتو يقول الوزان: "كان في تمبكتو دكاكين كثيرة للصناع والتجار، ولاسيما دكاكين نساجي أقمشة القطن، وتصل أيضاً إلى تمبكتو من أوروبا يحملها تجار من بلاد البربر"[17].

وذكر الرحَّالة العرب في العصور الوسطى أنَّ تمبكتو في عام 1100 م قد حلت محل خيام مدينة غانا وأكواخها المصنوعة من الحشائش، بوصفها مستودع البضائع الرئيسي في إفريقيا، وقد صارت مركز المباني المشيدة من الطوب والثقافة الإسلامية في عهد ملكها منسا موسى.[18]

3- جني:

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر بيني، أحد روافد النيجر[19]، وقد كانت ملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، ثم ما لبثت أنْ أصبحت مركزاً تجارياً مهماً بعد القرن الثاني للهجرة[20].

ذكر لنا السعدي في كتابه تاريخ السودان مدينة جني فيقول: "هي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة، جعل الله ذلك في أرضها خلقاً وجبلة وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمواساة، وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز وأرباب الذهب من معدن بسيط، وكلا المعدنين المباركين ما كانت مثلهما في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيراً وجمعوا فيها من الأموال ما لا يحصيه إلا الله سبحانه، ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتي الرفاق

من جميع الأفاق إلى أنْ تتبكت شرقها وغربها يمينها وشمالها وهي لتتبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر متى فارض ومتى رجع تباعد عنها الماء"[21].

فمدينة جني تعد منافسة لمدينة تمبكتو في نشاطها التجاري والثقافي، تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو، فاتجهت لها الطرق التجارية التي كانت تسير إلى تمبكتو، وأصبحت بعد ذلك ملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، ثم أصبحت مركزاً تجارياً مهماً، وهذا جعل التجار يحملون لها الإسلام مع ما حملوا من سلع، فأخذ الإسلام يدب فيها وينتشر، وأقام بها الكثير من العلماء يعلمون الإسلام وينشرون مبادئه، وعند تمام القرن السادس هجري أحس ملكها الوثني كنبرو أنَّ الإسلام يحيط به من كل جانب، كما أحس بما لهذا الدين من مبادئ راقية وفكر جليل، فعزم على اعتناقه وأسلم، وهدَّم أحد قصوره وحوَّله إلى مسجد.[22]

4- أوداغست:

تقع مدينة أوداغست جنوب موريتانيا، أنشئت من قبل قبيلة لمتونة البربرية، وبلغت أوج نفوذها خلال القرنين (الثالث- الرابع هـ/التاسع – العاشر م) وتعد حلقة وصل بين قوافل السودان الواردة من كل ناحية نحو المنحنى الأعلى لنهر النيجر، كما أنَّها تتحكَّم في مدخل السودان، فهي مفتاح طرق القوافل السودانية، وكانت دائماً مجال صراع تقليدي بين ممالك السودان والبربر[23].

كانت أوداغست سوقاً كبيراً كما كانت تحوي على مخزون وافر من المياه، ويزرع بها القمح والعنب والتين والنخيل، وتربية المواشي في محيطها[24]

وهكذا لعب التجار المسلمون دوراً واسعاً ومهماً في خدمة الإسلام ونشره دوراً عاد على الإسلام بالخير، وعاد على التجار بالنماء والبركة، فقد امتدت تجارتهم وازدهرت، وتضاعفت أرباحها في ظل الإسلام.

ثانياً- أثر النشاط التجاري في نشر الإسلام:

كان الإسلام أحد الأسباب التي أدَّت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في غرب إفريقيا، فقد حث على الكسب الحلال، فأقبل الأفارقة على المهن الشريفة التي تحفظ كرامتهم، وكان تحريم الإسلام للعبودية سبباً في صون القوى البشرية الأفريقية، وقد مرت التأثيرات الاقتصادية في إفريقيا بثلاث مراحل هي:

1- كان معظم التجار المسلمون يجتازون بقوافلهم حدود غرب إفريقيا خلف الصحراء، وكانت القافلة الواحدة تتكوَّن من عشرات الرجال محملين بالبضائع المتنوعة، وبعض الرجال يقومون بحراسة القافلة، والبعض الآخر للخدمة، ويرتدون الملابس النظيفة والأنيقة، وعند ما تحط القافلة أحمالها في مركز من المراكز التجارية يزاول التجار البيع والشراء للأهالي بالمكاييل والموازين والمقاييس، وهم يتعاملون معهم على أساس الثقة والاحترام دون الغش والربا، فكان الصدق دينهم والأمانة دستورهم[25]. استناداً لقوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[سورة المطففين، الآيات 1-5].

2- كان التاجر المسلم حسن السلوك والصلة بالآخرين، يتعامل معهم فيثقون به ثقة تنفي عنه أي اتهام له بدوافع استغلالية، إذ كثيراً ما يحاط الغريب عن الزنوج بالشك والريبة، ولكن التاجر المسلم إذ يكون غريباً فسلوكه وأخلاقه ودينه تزيل عنه الشكوك، وتوفر له القبول الحسن عند الأفريقيين، فإذا ما دخل قرية وثنية سرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته، كل ذلك يضفي عليه من المهابة والاحترام ما يحرك فطرة الأفريقي الوثني نحوه[26].

3- في مدينة غانا مثال جيد لتأثر الأفارقة بالتجار المسلمين حيث يتضح لنا من خلال ما دوَّنه المؤرخون والجغرافيون عند زيارتهم لغانة أمثال البكري وأبو الفداء "بأنَّ غانة مقسمة إلى مدينتين أحداهما يسكنها الملك، والأخرى يسكنها الرعية والتجار

والسوقة، بينما الدور والمساكن نحو ستة أميال متصلة، وفي مدينة الرعية جامع كبير ومساجد كثيرة، وفيها الأئمة والمؤذنون والفقهاء والعلماء..."[27]

أما أبو الفداء فقد ذكر باختصار أنَّ مملكة غانة: "مدينتان أحداهما يسكنها المسلمون، والأخرى الكفار"[28].

هذه الروايات إنْ دلَّت على شيء، فإنَّما تدل على مدى تأثر الأفريقيين بالمسلمين لدرجة توفير الراحة لهم، والمكان المناسب للإقامة بينهم، وذلك بسبب أخلاقهم وأمانتهم، كل تلك الصفات التي وصف بها التاجر المسلم، وثقت العلاقة بينه وبين المشتري الأفريقي، كما أثارت دهشته وإعجاب الأفريقيين الذين تعرَّفوا لأول مرة على هذا الدين من التجار، وتأثروا تدريجياً بهم، ممَّا أدَّى إلى اعتناق الكثير منهم للإسلام والدخول فيه، وساعد ذلك على اختلاط المسلمين بهم ومصاهرتهم، حيث أنَّ طول المدة التي يقضيها التجار المسلمون في إفريقيا أدت بالكثير منهم إلى الزواج من السكان المحليين، ممَّا خلق جيلاً مختلطاً كسب ديناً وثقافة جديدة بالإضافة إلى ثقافته الأصلية، وساعد ذلك على سرعة انتشار الإسلام[29].

ثالثاً- أثر المسلمون في تطور النشاط الصناعي:

بعد انتشار الإسلام عرف الأفريقيون قيمة العمل التي تعود عليهم بالفوائد الكثيرة، فقد جاء في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحث عن العمل، فقد قال عز وجل: **﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** [سورة التوبة، الآية 9]. لذلك فليس من الإسلام الدعوة إلى التخلف عن الحياة، أو التواكل في طلب الرزق، أو التقاعس عن السعي؛ اعتماداً على ما يصيبه من رزق، أو خير يجريه عليه الله عن طريق غيره، فالإسلام دعوة إلى العمل والعمل بإتقان والإخلاص فيه، وأنْ ينتشر الناس كل في طريقه الذي يستطيع أنْ يعمل فيه.

وقد وصف لنا القلقشندي مدى تأثر الأفارقة بالصناعات العربية الإسلامية حيث قال: ".... إنَّ من لباسهم عمائم مثل العرب وقماشهم بياض من ثياب قطن تنسج

عندهم في نهاية الرقة واللطف تسمى الكميصا، ولبسهم يشبه بلبس المغاربة جباب ودراريع..."[30].

وقد ذكر الوزاني أنَّ بكانو أسواق للبيع، وأهم الصناعات هي الأقمشة، وعَدّد لنا أنواعها وأسعارها فقال: "القماش الرفيع مثل المتشينو، والمنيمو يباع بخمسة عشر مثقال، أمَّا القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً..."[31].

أمَّا في سنغاي فقد كانت الأقمشة من أهم المصنوعات التي اشتهرت بها هذه المملكة، لكنها كانت يدوية.

وقد كان صانعوا الأقمشة في الغالب يجمعون إلى ذلك الصباغة بأنفسهم، ولكن كان يوجد إلى جانبهم بعض الذين تخصصوا في فن الصباغة وكانوا قليلين[32].

وقد شهد القرن الرابع عشر الميلادي في غرب إفريقيا تطوراً مهماً في الصناعة، فكان لها مختصون في مختلف المهن كالحدادين وصانعي الأباريق الفخارية والنجارين والحائكين[33].

أمَّا في العصر الحديث فقد وصف لنا الرحالة غبر هارد رولفس 1831-1869م عند زيارته بلاد التبو أهم الصناعات مثل صناعة الأسلحة من نبال ورماح وأقواس وتروس وحرفة الحدادة وصناعة الحُلي من فضة وذهب فقال: "إنَّ صناعتهم هذه خالية من الزخرفة الفنية، وأنَّ النساء يصنعن الحصر من جريد النخل، أمَّا الرجال فإنَّهم يصنعون أشياء من العظام ونوى التمر وقرباً من قشر الاكاسيا، كما تصنع الجلود ملابساً وقرب ماء، ونصنع سروج الخيل والجمال..."[34]

ومن خلال ذلك يتضح لنا أنَّ الصناعة في غرب إفريقيا تطورت بمجيء الإسلام إليها، حيث قامت مصانع يدوية للنسيج متعددة الألوان، والأنواع ووجدت طريقاً للنجاح، وغيرها من الصناعات مثل صناعة الأسلحة والقوارب والأواني الفخارية، وبازدهار الصناعة ازدهرت التجارة، هذا ما دوَّنه لنا الحسن الوزاني عندما زار

الممالك الأفريقية، حيث يتبين من خلال حديثه عن هذه الممالك وعن أهم منتجاتها نراه يردد ذكر عبارة "إنَّ أهل هذه المملكة كانوا تجاراً، أو كانوا صُناعاً ماهرون"[35].

رابعاً- أثر المسلمون في تطور النشاط الزراعي:

أمَّا المرحلة الثانية التي مرت بها التأثيرات الاقتصادية المتمثلة في الزراعة، فقد كان نظام العمل في إفريقيا قبل الإسلام بدائي قائم على تربية المواشي، وأحياناً على حرفة الصيد، فالزراعة تأتي في المرتبة الثانية، وكان الرجال يمهدون التربة والنساء تعشب الأرض وتفلحها.

وعمل الأفريقيون على تحسين الأرض وزراعتها، وذلك بعد اتصالهم بالعرب المسلمين حيث ظهرت أساليب زراعية حديثة لم تكن معروفة عندهم من قبل، فزرعوا أشجار البرتقال وبعض الفواكه والنخيل والذرة والفول والأرز في الأراضي الواقعة حول مجاري الأنهار وقاموا بتربية الماشية[36].

وبذلك قضى الإسلام وإلى الأبد على المعتقدات الزائفة المتعلقة بفلاحة الأرض وزراعتها، مثل اعتماد الأفارقة بأنَّ رجل الدين أو الملك هو الذي يمنح الخصب والنماء لأرضه، فيطلب منه أنْ يتدحرج بجسده على الأرض قبل فلاحتها؛ لكي يمنحها البركة والخصب والنماء[37]. وأورد القلقشندي بعض المحاصيل الزراعية التي تنتجها مدن غرب إفريقيا فقال: "وبلادهم قحط وشظف وسوء مزاج مستول عليها وغالب عيشهم الأرز والقمح والذرة، وببلادهم التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب، ومن المحاصيل كذلك القطن... والنخيل"[38].

أمَّا عن الحيوانات فكان أشهرها الخيول، يأتي بعدها البغال والحمير والبقر والغنم والماعز والجمال...، ومن الطيور الأوز والدجاج والحمام[39].

خامساً- أثر المسلمين في تطور المعاملات المالية:

إنَّ دخول التجار المسلمين إلى غرب إفريقيا -كما مرَّ بنا- أثَّر بلا شك في نواحي الحياة الأفريقية، وبخاصة الاقتصادية التي نحن بصددها، حيث آثر أي الأفارقة معاملة المسلمين معهم على أسس صحيحة لا يرتقي إليها الشك، فقد طبقوا

القوانين والمعاملات المالية التي نص عليها القرآن الكريم. وبعد معرفة هؤلاء الأفارقة بالدين الإسلامي عن طريق نزاهة وأمانة التجار المسلمين حاولوا تقليد النظم الإسلامية التي تتعلق بالتجارة والمعاملات المالية، فأدركوا أنَّهم كانوا مخطئين عندما كانت تجارتهم تقوم على النظام التقليدي، ألا وهو نظام المقايضة الذي كان يتم عن طريق الإشارات حيث كان العرب يحملون بضاعتهم في أماكن خاصة، ثم ينسحبون فيأتي الأفارقة ويضعون إلى جانب البضاعة كمية من الذهب التي تناسب أثمانها، وعندئذ يأتي التاجر العربي بعد انسحاب التاجر الأفريقي ليتقاضى الثمن ذهباً، وإنْ لم يرض بالثمن فأنَّه يمتنع عن رفع الكمية الموضوعة، وينسحب فيعود الأفريقي ويزد في كمية الذهب، أو أنَّه يرفعها إشعاراً منه بأنَّه لا يمكنه أنْ يدفع أكثر مما دفع[40].

لقد تطور هذا النظام بعد انتشار الإسلام الذي آخا بين العربي والأفريقي، فلا فرق بين أبيض وأسود ولا بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

فبذلك قويت الثقة بين التاجر المسلم والمشتري الأفريقي، ووجدت وسائل أخرى للمقايضة كقوالب الملح أو الصوف أو ثمرة الكولا، وبعد مرور مدة من الزمن أصبحت هذه البضائع نقداً متداولاً إلى جانب الذهب الخليط، أو القطع الذهبية المسكوكة في الخارج، كما استخدم أيضاً النحاس كعملة نقدية، أمَّا الصرف فقد استعمل بتأثير عربي من السودان العربي واليمن[41].

وقد ذكر الحسن الوزاني العملة التي كانت متداولة في تمبكتو فقال: "أمَّا العملة فتستخدم قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة والودع لشراء الأشياء التافهة..."[42].

وقد رأى ابن حوقل معاملات تجارية مكتوبة على شكل نقد لتاجر من سجلماسه على تاجر من أوداغست بمبلغ أربعين ألف دينار مغربي[43]، وقد وجدت في أيدي الحاشية في بلاط مالي وغاؤ دنانير مغربية ومصرية استعملت لشراء حاجات الأسرة الحاكمة من منسوجات وكتب وتحف من التجار العرب المسلمين، وقد عرف الأفارقة نظام الضرائب، فكان على كل فرد قادر أنْ يدفع عُشر دخله من الضرائب العينية،

وفي مملكة مالي أصبحت الضريبة نقداً من الذهب، كما عرفوا أيضاً الضرائب الجمركية ووضعوا لها نظاماً خاصاً بها(44).

وقد ذكر البكري أنَّ ملك غانة كان يفرض ديناراً ذهبياً على حمار محمَّل بالملح يدخل إلى بلده، ودينارين على نفس الكمية عندما تخرج من بلده إلى بلد آخر، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل(45).

الخاتمة:

إنَّ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا تم بواسطة الدعوة، وقد يسر ذلك أنَّ الدين الإسلامي دين الفطرة بطبيعته لا لبس فيه، ولا تعقيد في مبادئه، ولا يتطلب من الشخص لاعتناقه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح مسلماً.

وقد ساهم الدين الجديد في تعميق وتعزيز العلاقات بين العرب المسلمون والأفارقة، وذلك بفضل دعوته القائمة على التسامح والمساواة والتعاون، والتي تحث على الكسب الحلال، ممَّا شجَّع الأفارقة للإقبال على المهن الشريفة التي تحفظ كرامتهم، كما كان تحريمه للعبودية سبباً في صون القوى البشرية الأفريقية، كل ذلك جعل الأفريقي يرحب به ويعتنقه، بل أصبح من دعاته.

لقد كان للعامل الاقتصادي أثره في تغلغل الأفكار، والتعاليم الإسلامية، فبفضله أصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة والفكر الإسلامي، فكان التجار ورجال العلم من الطلبة والدعاة يحملون معهم الأفكار المتحضرة عن الحكومات الإسلامية التي جاءوا منها، فعملوا كمترجمين ونساخ ووزراء وتمتعوا بامتيازات وضمانات كثيرة.

وساعد انتعاش التجارة على استقرار الأمن في جميع أنحاء البلاد، وكثرت الأموال بسبب الضرائب المفروضة على البضائع سواء كانت عينية أو نقدية أو ضرائب جمركية. كما ساهم ازدهار الحركة التجارية وأمنها في نشاط قوافل الحج إلى الأراضي المقدسة، فكانت تخرج من غرب إفريقيا قوافل عديدة يجتمع فيها المسلمون على اختلاف شعوبهم ولغاتهم من كافة أنحاء العالم للصلاة والحج في ذلك المكان المقدَّس.

لقد كان للإسلام الفضل في القضاء على المعتقدات الزائفة في الزراعة والمعاملات المالية، إذ اعتمد في تداوله على النظام النقدي أو القطع الذهبية المسكوكة من الخارج، وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة والسليمة، ممَّا هيأ جواً من الثقة والتقدير، فلقي التاجر المسلم ترحاباً أينما حل؛ ممَّا سهَّل عملية تبادل السلع والأفكار، وأعطى ذلك للإسلام فرصة الانتشار أكثر.

هوامش البحث:

(1) أبوالقاسم بن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ب- ت، ص99.

(2) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، مج6، ط4، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1983، ص202.

(3) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا العرب، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، 1961، ص59.

(4) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ب- ت، ص62.

(5) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص40.

(6) شلبي، مرجع سابق، مج6، ص194.

(7) إبراهيم حركات، (دور الصحراء الإفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط)، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، طرابلس مركز جهاد الليبيين،1981م، ص29.

(8) المرجع السابق، ص 39.

(9) حسين مؤنس، (فزان ودورها في انتشار الإسلام في إفريقيا)، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، بنغازي، الجامعة الليبية، 1969م، ص69.

(10) محمد المبروك يونس، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الإفريقية "1952-1977"، ط1، طرابلس، 1988، ص21.

(11)عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص76.

(12) سينكي مودي سيسوكو، الصنغاي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، تاريخ أفريقيا العام، إشراف جريل، ت، نياني، مج 4، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1988م، ص209.

(13) دونالد ويفر، تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة رائد بدوي، القاهرة، دار الجيل، ب–ت، ص48.

(14) شلبي، مرجع سابق، مج6، ص197.

(15) أبوعبد الله محمد بن بطوطة، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه علي المنتصر الكتاني، مج 2، بيروت، مؤسسة الرسالة للنشر، 1975، ص 773.

(16) الحسن الوزاني، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج2، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957، ص355.

(17) دونالد ويفر، مرجع سابق، ص47.

(18) شلبي، مرجع سابق، مج 6، ص198.

(19) المرجع نفسه، مج6، ص 199.

(20) المرجع نفسه، مج6، ص 199–200.

(21) عبدالرحمن بن عبدالله السعدي، تاريخ السودان، باريس، نشره وعلّق عليه هوداس، 1898، ص11.

(22) المصدر السابق، ص12.

(23) حسن عيسى عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني "مطلع القرن 12 هـ"، الرياض، جامعة الإمام محمود بن سعود، 1981، ص 78.

(24) محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 2007، ص 61.

[25] شلبي، مرجع سابق، مج 6، ص 204-205.

[26] عبد الظاهر، مرجع سابق، ص 78.

[27] أبو عبيدة الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ترجمه دي سيلين، بغداد، مكتبة المتنبي، ب-ت، ص 175. انظر أيضاً: مؤلف مجهول كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، حققه سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 220.

[28] عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، تقويم البلدان، عني بتصحيحه وطبعه ريفود والبارون ماك كوكين ديسلان، بيروت، دار صادر للنشر، ب-ت، ص 96.

[29] إدريس الحرير، (العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى)، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، طرابلس، منشورات جامعة طرابلس، 1983، ص77.

[30] أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج5، القاهرة، مطابع كوستا تسوماس، ب-ت، ص 299.

[31] الوزاني، مصدر سابق، ج3، ص 170-171.

[32] عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر، ب-ت ، ص 191.

[33] نعيم قداح ، إفريقيا الغربية في ضل الإسلام، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1990، ص42.

[34] نمير هارد رولفس، عبر أفريقيا، ج1، ترجمة: عماد الدين غانم، سبها: مركز البحوث والدراسات الأفريقية، ب - ت، ص215.

[35] الوزاني، مصدر سابق، ج2، ص170-171.

[36] وفيق الخشاب وآخرون، أفريقيا جنوب الصحراء، الموصل، جامعة الموصل، 1978، ص 22.

[37] قداح، مرجع سابق، ص 34.

(38) القلقشندي، مصدر سابق، ج5، ص 300.

(39) إبراهيم علي طرخان، دولة مالي الإسلامية، "دراسات في التاريخ القومي الأفريقي" القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973، ص37.

(40) قداح، مرجع سابق، ص 28.

(41) المرجع نفسه، ص 129.

(42) الوزاني، مصدر سابق، ج2، ص 167.

(43) ابن حوقل، مصدر سابق، ص 65.

(44) قداح، مرجع سابق، ص 129.

(45) البكري، مصدر سابق، ص 176.